مقدمة

إن مهمة التاريخ بين العلوم الاجتماعية هي: توعية المجتمعات بطرح أسئلة مثل: "من أين جاؤوا، وإلى أين يصيرون، وما هي المواقف التي يجب عليهم أن يتخذوها تجاه الأحداث؟". ولهذا السبب تلعب الأبحاث التاريخية دوراً في غاية الأهمية في تشكيل السياسات الثقافية والنهوض بالمجتمعات. فالتاريخ هو علم التغيّر والتقدم والتنمية. وهناك دروس عديدة يمكن استنباطها من التاريخ في هذا المضمار.

مرة أخرى لا بد من دراسة الأحداث التاريخية على أنها مصدر للمعرفة والتوعية أكثر من كونها وسيلة لتبرئة الأيدولوجيات أو وجهات النظر التي ندافع عنها. عندئذ فقط يمكن للتاريخ أن يحقق وظيفته المنشودة في الوصول إلى الأهداف المذكورة آنفا.

إن التاريخ ليحفل بمئات النماذج من قادة الأمة؛ ولا يمكننا استخلاص العبر منهم والاستفادة منهم على وجه ينفع الإنسانية إلا إذا تسنى لنا تناولهم من وجهة نظر محايدة. ولعل من أكثر القادة شعبية على مدار تاريخ الدولة العثمانية الذي استمر ٦٢٣ سنة هو السلطان عبد الحميد الثاني.

لا شك أن السلطان عبد الحميد الثاني هو أكثر سلطان عثماني أثير من

حوله الجدل، وأكثر من تناولته الدراسات والأبحاث،(*) وتركز الجدال حول شخصيته، وبصفة خاصة حول الأحداث الهامة جدا التي ظهرت خلال فترة حكمه. حيث كانت فترته مليئة بالاضطرابات والأزمات، تجاهد فيها الدولة العثمانية -والتي كانت تعيش أيامها الأخيرة- لتستعيد قوتها حتى تواكب الحضارة والتقدم الغربي والتطور الذي طرأ على الصناعة، بالإضافة إلى ظهور عدة تيارات فكرية تهدف إلى إنقاذ الدولة، وكثيراً ما اختلفت تلك التيارات مع بعضها البعض...

إن الدول والمؤسسات ترتقي بالكوادر المناسبة، والتي تبذل كل ما في وسعها لخدمة القضية، والتي تعبّر عن أفكارها بوضوح عندما يقتضي الأمر. إن الكوادر القوية، و الوزراء الأكفاء، والمساعدين المخلصين لهم كنز نادر. وأي قائد يُحرم من مثل هذا الكنز يتعسر عليه النجاح. ولقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني -ولو جزئيا- في اجتياز هذه المعضلة؛ إنه أحد القادة النادرين الذي استطاعوا وقت الأزمات أن يحافظوا على عزة الأمة ومجدها في أبهى شكل.

تتضح لنا مدى مهارته كرجل يعرف كيف يسيطر على الأحداث، وتتوفر لنا الفرصة لمعرفته على حق في ضوء كلماته حيث يقول: "الذين يعون

(*) ملحوظة: هذا التعبير ظهر في كل الأوساط حتى وقت قريب وظل كأنه مجرد ادعاء. ولكن كاتبنا في هذا الصدد، أثبت أن السلطان عبد الحميد هو أكثر حاكم تناولته الأقلام، وأنه من خلال دراسته عنه في أطروحة الماجستير، قد أعد قائمة مفصلة بكل الأعمال التي كتبت عنه في كل بقاع الدنيا حتى يومنا هذا سواء كانت باللغة التركية أو بلغات أخرى عديدة مثل (كتب، مقالات، رسائل ماجستير و دكتوراة، مذكرات، مؤتمرات، حلقات النقاش، ندوات إلخ). وألحق بكتابنا الرسمُ البياني والتقدير العددي للأعمال المكونة من ٤٠٩ عملاً عبارة عن ٥٦٤ كتاباً و٩٣٤ مقالاً. للوقوف على التفصيلات انظر رسالة الماجستير التي قدمها المؤلف بعنوان:

(Seyfullah ARPACI, Sultan II. Abdülhamid Bibliyografyası, Yüksek Lisans Tezi, Erciyes Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Kayseri 2003).

التاريخ العثماني يدركون أن هذه الدولة قامت على العدل ولم تقم على القوة. إذا أحل الجيش العثماني الظلم أينما ذهب مكان العدل، تفتت في الحال بذرة هذه الإمبراطورية قبل أن تنبت. فالعدل هو أساس الشرعية. والشرعية هي دعامة السلطة. والقوة هي مؤازر الشرعية. وعليه فإن القوة يجب أن تعتمد على الشرعية، ويجب أن تعتمد السلطة على العدل. فكل من يسعى نحو استخدام السلطة بلا عدل، والقوةِ بلا شرعية، تكون عاقبته الفناء. فإذا استخدم الجيش قوته داخل الإطار المخصص له فهذا أمر مشروع، أما إذا انزلق بها لاستخدامها في غير الغرض المنوط به فهو أمر غير مشروع. فربما يحطم بقوته بعض الأشياء، ويحرقها ولكن في النهاية سيحطم نفسه أيضا. ومع الأسف تنهار الدولة أيضا تحت هذه الأنقاض".

لا شك أن عبد الحميد الثاني هو البطل الرئيسي بلا نزاع في أواخر عهد الدولة العثمانية. وانطلاقا من هذه النقطة، يتحتم علينا أن نَعرفه ونُعّرفه في أحسن شكل. إننا نعرف أن التاريخ دائماً مليء بالعبر. فالإنسانية تستطيع أن تنجح وأن تقف على قدميها بقدر ما تشبعت به من نتائج التجارب التي عاشها من سبق. أما الفترة التي نعتزم الكتابة عنها، فهي فترة مليئة بالتجارب. باختصار فإن عبد الحميد الثاني، والفترة التي حكم فيها، لهي درة مليئة بالخبرات والعبر ظلت راقدة في أعماق بحر التاريخ.

لا يسعنا هنا إلا استخلاص العبر بأجمل شكل، ودراسةُ ونقلُ خلاصة التجارب العميقة التي خرجت من معمل السلطان عبد الحميد الثاني إلى الأجيال القادمة من جهة، وإلى من يحكمون الدولة ومثقفي اليوم من جهة أخرى.

يقال: إن الإنسان اتعظ من الماضي... يا لها من مقولة!

قصة خمسة آلاف سنة هل أعطت نصف موعظة؟

وَصَفوا التاريخ بأنه يكرر نفسه،

هل كان يتكرر لو اتعظ من قرأه؟

إن شاعر النشيد الوطني التركي محمد عكف هو الذي قال أحسن القول في هذا المضمار في الأبيات المذكورة، فهل هناك من داع لمزيد من القول!

نتمنى أن نكون قد أسهمنا ولو بالقليل في الدراسات التي تناولت التعريف بالسلطان عبد الحميد الثاني، وأن يجد الحق مكانه. ولعل شهادتنا تترك في القلوب أثراً طيباً بقدر المتاعب التي واجهتنا في الطريق. ولعل مؤرخي المستقبل يصلون بهذه الأدلة التي نعرضها إلى الحقائق التي يبحثون عنها إن شاء الله في سرداب التاريخ العامر بالأسرار.

أخيراً، فإنني أدين بالشكر إلى كل من السيد "طه أَقْيُولْ" الكاتب والصحفي ورجل الفكر المستنير، وكذلك أستاذي العظيم "متين هولاغو" الأستاذ المساعد، اللذَين لم يدخرا جهدا ودعماً مادياً أو معنويا في اختيار الموضوع، وإعداده، ونقده ومراجعته، حتى يظهر هذا العمل على أفضل وجه. وكذلك أدين بالشكر إلى زوجتي المؤرخة "نوراي هانم" على دعمها المعنوي في كل مراحل هذه الدراسة، وقيامها بتقويم المصادر ومراجعتها، والتصحيح اللغوي.

سيف الله أرباجي

إسطنبول ٢٠٠٤م

مدخل

أكثر سلطان عثماني أثير حوله الجدل، وتناولته مناقشات عديدة هو -بلا شك- السلطان عبد الحميد الثاني؛ فقد اعتلى العرش في أكثر فترات التاريخ العثماني صعوبة وتعقيدا، وكان موقفه إزاء الأحداث الهامة اجتماعيا واقتصاديا وسياسياً التي واكبت فترة حكمه، محط الاهتمام -أكثر من مميزات شخصيته- سواء بالمدح أو بالنقد الشديد.

اليوم يمكن التغاضي عن الجدل المحيط بشخص السلطان عبد الحميد الثاني سواء أكان جدالاً يمتدحه أو يتهمه. ولكن فترة حكمه التي استمرت ٣٣ سنة وغطت فترة تاريخية ضخمة لهي فترة لا يمكن تجاهلها، حيث ظهر فيها تيار "الإسلامية" و"التركية" في مواجهة التيارات الفكرية الغربية التي اشتدت قوتها، مع زيادة المكائد السياسية، كما وصلت فيها ضغوط الدول الغربية النفسية والسياسية على الدولة العثمانية إلى ذروتها، وأخذ مثقفونا يقيمون بدقة حركة التغريب التي بدأت مع "التنظيمات" وتوهجت مع "المشروطية" واكتسبت قوة مع تيار "الجمهورية".

مرة أخرى فإن أسس التطورات الثقافية والسياسية التي نعيشها اليوم لا بد من البحث عن جذورها في التاريخ القريب. ومن هنا تعد فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني أهم معالم التاريخ الحديث.

لقد تكثف الجدال حول السلطان، وبشكل خاص حول بعض الأحداث ذات الأهمية القصوى التي ظهرت في عهده. حيث كانت فترة

حكمه مكتظة بالأزمات والكروب، وكانت الدولة العثمانية تعيش أيامها الأخيرة، وكافحت كي تسترد قوتها في مواجهة الحضارة والتقدم الغربي الكبير، مع ظهور الثورة الصناعية، فضلاً عن التيارات الفكرية العديدة التي تولدت لتحقيق تلك الغاية، والتي كثيرا ما كان الخلاف يدب بينها.

كانت الدولة العثمانية وقت تولي السلطان عبد الحميد العرش غارقة داخلياً وخارجياً في الأزمات. وبلغت الأزمة المالية إلى مستوى لا طاقة للدولة بها. ومن جهة أخرى بدأت أوروبا البحث من جديد عن قوى تُحقق التوازن وكأنها تغير قشرتها. لذا زاد حجم ضغوط الدول الأوروبية على الدولة العثمانية. أما في العاصمة إسطنبول فإن الأوساط السياسية كانت تعتقد أن وجود نظام دستوري سيخفف من ضغوط أوروبا السياسية.[1]

وفيما يلي السياسة التي أعدها ومارسها السلطان عبد الحميد الثاني على نحو مختصر:

اتبع سياسة التوازن في التعامل مع الغرب، واستخدم الدول الأوروبية ضد بعضها البعض، وكان عنصر "التوازن" دائما يتصدر خطته. أما في التعامل مع الشرق فقد اتبع السياسة الإسلامية، وأعطى أولوية كبيرة لمسألة "الخلافة"، واجتهد في تعظيم صفتها، وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تحقيق هذا الهدف؛ فأرسل العلماء ونسخاً من القرآن الكريم إلى الهند واليابان لنشر الإسلام، وكرد فعل يرد به على النشاط التبشيري الذي يقوم به البابا.[2]

عموماً كان بارعاً في السياسة الداخلية إلى جانب مهارته في السياسة

1 Levon Panos Dabağyan; Sultan II.Abdülhamid ve Ermeni Meselesi, Kum Saati Yayınları, Istanbul 2001, s. 16

2 Dabağyan; a.g.e., s. 17

الخارجية والتي كانت عبارة عن البحث عن علاج ينقذ الدولة العثمانية التي كانت على فراش المرض من الداخل، ويجعلها ترتاح لتلتقط أنفاسها، مستمرا في إشعال التنافس بين الدول الإمبريالية، وإغراقها في الخلاف، وتحريض بعضها على بعض، بالإضافة إلى استغلال نقاط الضعف في أمورها الداخلية والخارجية لينتصر عليها.

أما أسس السياسة الداخلية فهي باختصار على النحو التالي:

تطهير الوطن من الآراء والأفكار الفاسدة المنتشرة بداخلها، وتخليص الرعية الجهلاء من الأمية، وتحصيل العلم والتقدم عن الغرب بما يتفق وقيمَ المجتمع العثماني السليمة، مع عزل الشعب بعيداً عن القيم الغربية الأخرى، وإعادة الدولة العثمانية لمجدها القديم، وتدريب الموظفين المخلصين، وتعيين ذوي الكفاءات وأصحاب القيم العلمية والوطنية والأخلاقية في بنية الدولة والحكومة.